جامعة الموصل/كلية التربية للعلوم الانسانية/قسم التاريخ

أ.م.د. ازهار هادي فاضل

المادة/ فلسفة التاريخ

وجه التشابه والاختلاف بين نظرية ابن خلدون وتوينبي وأشبنجلر في التفسير الحضاري للتاريخ"

المقدمة

تُعدّ الحضارة ظاهرة إنسانية معقدة حظيت باهتمام كبار المفكرين والمؤرخين والفلاسفة عبر العصور، حيث حاول كل منهم أن يفسر صعودها وسقوطها وفقًا لمنظوره الفكري والثقافي. من بين أبرز هؤلاء المفكرين: ابن خلدون (1332–1406)، المؤرخ والفيلسوف المسلم صاحب "المقدمة" التي عدّها البعض نواة لعلم الاجتماع، وأرنولد توينبي (1889–1975)، المؤرخ البريطاني الذي قدم نظرية "التحدي والاستجابة"، وأوزفالد شبنغلر (1880–1936)، المفكر الألماني صاحب رؤية فلسفية تشاؤمية حول مصير الحضارات كما عرضها في كتابه "أفول الغرب".

تتناول هنا أوجه التشابه والاختلاف بين نظريات هؤلاء المفكرين الثلاثة في تفسير الحضارات من حيث النشأة والتطور والانهيار، وتسلط الضوء على الأبعاد الاجتماعية والثقافية والفلسفية التي شكلت رؤاهم.

أولًا: نظرية ابن خلدون في العمران البشري ودورة الحضارة

يرى ابن خلدون أن نشوء الحضارات مرتبط بما سماه "العصبية"، أي التلاحم الاجتماعي والسياسي الذي يجمع الجماعة ويمنحها القوة على السيطرة والتوسع. تبدأ الحضارة، حسب ابن خلدون، بالبداوة، ثم تنتقل إلى الحضر مع ما يصاحب ذلك من رخاء وازدهار، ثم تصيبها عوامل الضعف والتفكك حتى تنهار.

مراحل الحضارة عند ابن خلدون:

1. المرحلة التأسيسية (البداوة): حيث تكون الدولة قوية بسبب التضامن القبلي والبساطة.
2. المرحلة المدنية (التحضر): يتسع نطاق الدولة وتزداد الرفاهية، لكن يظهر الترف والفساد.
3. مرحلة الانحدار: تفقد الدولة عصبيتها ويضعف حكامها وينهار النظام.

يربط ابن خلدون هذه الدورة بعوامل اجتماعية وسياسية داخلية أكثر من العوامل الخارجية. كما اعتبر أن للتاريخ قوانين تحكم تطور المجتمعات، وهي نظرة سبقت ظهور "فلسفة التاريخ" في أوروبا.

ثانيًا: نظرية توينبي: الحضارات والتحدي والاستجابة

يرى أرنولد توينبي أن الحضارات لا تنشأ إلا عندما تواجه مجتمعات معينة "تحديًا" من نوع ما (بيئي، اجتماعي، سياسي...) وتتمكن من الاستجابة له بفعالية. فالتحدي يولد الإبداع، ومن لا يستجيب للتحدي مصيره الزوال.

مراحل الحضارة عند توينبي:

1. التحدي: يتولد بفعل أزمات أو بيئة قاسية.

2. الاستجابة الخلاقة: تقوم بها نخبة مبدعة تقود المجتمع للحضارة.

3. التوسع: بفضل قوة الإبداع والسيطرة.

4. الأزمات الداخلية والجمود: تظهر علامات الترف والانقسام.

5. الانهيار: حين تفقد النخبة دورها ويظهر "الانفصال الاجتماعي".

ركز توينبي على دور الإرادة الإنسانية والقيادة الروحية والثقافية، واعتبر أن تكرار الفشل في الاستجابة للتحديات هو ما يسرّع زوال الحضارات.

ثالثًا: نظرية شبنغلر: الحضارة ككائن عضوي محكوم بالقدر

قدّم أوزفالد شبنغلر رؤية فلسفية عميقة في كتابه "أفول الغرب"، واعتبر أن الحضارات كائنات عضوية تولد وتنمو وتشيخ وتموت. كان يعتقد أن لكل حضارة "روحًا" خاصة تميزها عن غيرها، ولا يمكن تعميم النماذج الحضارية.

مراحل الحضارة عند شبنغلر:

1. الولادة: انبثاق "الثقافة" الأصيلة التي تتجلى في الفنون والدين.

2. النمو: مرحلة النضوج حيث تتحقق الإبداعات.

3. التحول إلى حضارة: انتقال من الإبداع إلى التنظيم العقلاني.

4. الجمود والموت: تفقد الحضارة روحها، وتسود الماديات والبيروقراطية.

شبه شبنغلر الحضارة بالغروب بعد شروق طويل، ورأى أن الغرب يعيش مرحلة "الأفول" حيث تتحكم المادية والتقنية، وتغيب الروح.

رابعًا: أوجه التشابه بين النظريات الثلاث

1. دورية التاريخ: جميعهم يرون أن الحضارات تمر بمراحل تشبه دورة الحياة (الولادة، النضوج، الانحدار، الزوال).

2. التركيز على العوامل الداخلية: رغم اختلافهم في التفاصيل، جميعهم يُبرزون أثر العوامل الداخلية مثل الفساد، فقدان الروح، أو ضعف العصبية.

3. نظرة فلسفية اجتماعية: كل منهم نظر إلى التاريخ والحضارة من زاوية فلسفية تتجاوز التفسير المادي أو الاقتصادي الصرف.

4. نقد التحضر الزائد: توينبي وابن خلدون وشبنغلر رأوا في الرفاهية الزائدة والترهل علامة على بداية الانهيار.

خامسًا: أوجه الاختلاف الجوهرية

البند	ابن خلدون	توينبي	شبنغلر
المنطلق	اجتماعي–تاريخي	فلسفي–تحليلي	رمزي–عضوي
العامل الأساسي في نشوء الحضارة	العصبية والانتقال من البداوة إلى الحضر	التحدي والاستجابة	الروح الثقافية الفريدة
نظرة للإنسان	محكوم بطبائع الاجتماع	حرّ وقادر على الإبداع	محكوم بالقدر الثقافي
مصير الحضارات	حتمي إلى الزوال بعد الازدهار	مرتبط بالقدرة على الاستجابة	حتمي كدورة بيولوجية

الخاتمة

رغم تباين أزمنتهم وثقافاتهم، اجتمع ابن خلدون وتوينبي وشپنغلر على أن الحضارة ليست كيانًا ثابتًا بل تمر بتحولات معقدة تعكس طبيعة الإنسان والمجتمع. تنطلق نظرية ابن خلدون من نظرة اجتماعية واقعية تستند إلى التجربة الإسلامية، بينما قدّم توينبي نموذجًا أكثر عالميّة وتفاؤلًا يعتمد على إرادة النخبة، أما شپنغلر فصاغ رؤية قدرية وتشاؤمية ترى الحضارة في مسار لا يمكن كسره.

تمثل هذه النظريات إرثًا فكريًا غنيًا يساعد في فهم ديناميكيات التاريخ الإنساني، وتوفر أدوات تحليلية لفهم صعود وانهيار الكيانات الحضارية، ما يجعلها مرجعًا لا غنى عنه في الفكر التاريخي والفلسفي.